

## الميزان الصحيح لأفضلية العبادة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

نظراً لما يطرح هذه الأيام من كلام حول أفضل الأعمال وأحبّها إلى الله تعالى، أحببت أن أذكر لكم ما ذكره ابن القيم، رحمه الله، في مدارجه، إجابة على هذا التساؤل، وقد ذكر أقوال الطوائف في ذلك مع أدلتها والراجح من ذلك. فقال رحمه الله:

ثم أهل مقام (إياك نعبد) لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم في ذلك أربعة أصناف:

### الصنف الأول:

عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقّها على النفوس وأصعبها. قالوا لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد. قالوا والأجر على قدر المشقة ورووا حديثاً لا أصل له ((أفضل الأعمال أحمرها)) أي: أصعبها وأشقها. وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس. قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك؛ إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاق إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

### الصنف الثاني:

قالوا أفضل العبادات: التجرد، والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان، واطّراح

الاهتمام بها وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسان:

**فعوامهم:** ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا والتقلل منها غاية كل عبادة ورأسها.

**وخواصهم:** رأوا هذا مقصودا لغيره، وأن المقصود هو عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبه، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

### الصف الثالث:

رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدد، فأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (( الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله )) رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النافع متعدد إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟.

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (( لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم )) وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي.

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء)).

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، مادام نفعه الذي نُسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب. ولهذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس.

### الصنف الرابع:

قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الله في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

**فأفضل العبادات في وقت الجهاد:** الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام

النهار، بل ومن ترك إتمام الفرض، كما في حالة الأمن.

**والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً:** القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذا

في أداء حق الزوجة والأهل.

**والأفضل في أوقات السحر:** الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

**والأفضل في أوقات الأذان:** ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

**والأفضل في أوقات الصلوات الخمس:** الجِد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة

عليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع وإن بعد كان أفضل.

**والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاء أو البدن أو المال :** الاشتغال بمساعدته،

وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

**والأفضل في وقت قراءة القرآن:** جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى

يخاطبك به. فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من

جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

**والأفضل في وقت الوقوف بعرفة:** الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف

عن ذلك.

**والأفضل في أيام عشر ذي الحجة :** الإكثار من التعبد لاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو

أفضل من الجهاد غير المتعيّن.

**والأفضل في العشر الأخير من رمضان:** لزوم المسجد فيه والخلوّة والاعتكاف دون التصدّي

لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقراءهم القرآن

عند كثير من العلماء.

**والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته:** عيادته وحضور جنازته وتشييعه.

**والأفضل في وقت نزول النوازل وأداة الناس لك:** أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون

الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

**فالأفضل في كل وقت وحال:** إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التبعيد المطلق. والأصناف قبلهم أهل التبعيد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التبعيد المطلق ليس له غرض في تبعيد بعينه يؤثره على غيره، بل لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيتهم وإن رأيت العباد رأيتهم معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيتهم معهم.

فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق ب(إياك نعبد وإياك نستعين) حقاً، القائم بهما صدقاً، ملبسه ما تريباً

ومأكله ما تيسّر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته. ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حرّ مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أنّى توجّهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محقّ، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوّكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله. فهو لله وباللّه ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلّى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلّى عنها. فواهاً له! ما أغربه بين الناس! وما أشدّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه باللّه وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! واللّه المستعان، وعليه التّكلان.

• **مستلّ من كتاب:** تهذيب مدارج السالكين، لعبد المنعم العزي. ص ٥٩-٦١ ط: دار النشر للجامعات-مصر.